



فن رسائل الحب في الادب العربي

بحث ادبي تاريخي من مقدمة « اوراق الورد »

لمصطفى صادق الرافعي

... وأما بعدُ فالتا لا نعرف في تاريخ الادب العربي كله رسالة كتبت من هذا الطراز على كثرة كتّاب العربية وكُتبتْها وعلى ما أبدعوا في فنون الترسُّل وعلى ان هذه العربية من أوسع لغات الدنيا فيما خَصَّتْ به المرأة وما اوقَعَتْهُ على صفاتها وما افاضتْهُ على الماطفة اليها وما حَفَلَتْ بِهِ من الفاظ معانيها حتى لو امكن ان ترسل لغات الامم الفاظها تَسْتَبِقُ في المعاني النسائية لما كان السبق الاً للالفاظ العربية ولا أوفى على الغاية الا المعجم العربي وحده وفي تاريخ ادبنا من اشتهروا بالعشق من نُكَاثِرُ بهم في هذا الباب ، ومن اشهرهم مجنونُ بني عامر ^(١) وصاحبتُهُ ليلى ، وقيسُ ابن ذريح ولُبني، وتوبةُ وليلى الاخيلية ، وكثير وعزّة ، وجميلٌ وبثينة ، والمؤمل والدِّلفاء ، ومُرْقَش وأسماء ، وعروة وعفراء ، وعمرو بن عجلان وهند ، والمهذب ولذة ، وذو الرُّمة وميِّة ، وقابوس وميِّة ، والمجبل السعدي والميلاء ، ووضّاح اليمن وام البنين ، وبشر وهند، وابن ابي ربيعة والثريا (وثرِيَّات كثيرة . . .) والاحوص وسلامه، ونصيب وزينب، وأبو العتاهية وعتبة، وابن الاحنف وقوز، وأبو الشيص وأمامة، وابن زيدون وولادة، وكثيرون وكثيرات واشتهر من شعراء الغزل خاصة كثيرون منهم ابن اذينة وابن الدِّمِيْنَة وابن الطثرية وابن ميّادة وابن مطير وابن ابي ربيعة وابن ذريح والعَرَجِي والمجنون وقيس بن الحطيم وسويد بن أبي كاهل وكثير الذي قالوا فيه لو رقي المجنون بشعره لفاق، وجميل ونصيب ووضاح وعباس بن الاحنف والحليخ والوأواء وابن الحياط وابن زيدون ومن لا يحصى في المشرق والمغرب والاندلس ^(٢)

واشتهر من الشعراء المتظرفات الجميلات الموقوفات على الحب: الدلفاء وعنان جارية الناطفي ويقولون انها أشعر الناس وجنان صاحبة أبي نواس وفضل الشاعرة جارية الخليفة

(١) يظنه بعضهم شخصاً خرافياً ولنا من هذا الرأي وإنما حلوا عليه في الرواية
(٢) استوفينا هذا الباب في الجزء الثالث من كتابنا «تاريخ آداب العرب» وإنما نلم هنا ببعض الاسماء ارسالاً على طريق ما نحن فيه لا على طريق التاريخ

المتوكل وكانت أفصح أهل زمانها وكانت تهاجي خنساء الشاعرة جارية هشام المكفوف وعشقت الكاتب البليغ سميد بن حميد، وللمتوكل بنان ومحبوبة أيضاً وهما شاعرتان . وفي الاندلس زهون الفرناطية وولادة وحمة الملقبة بخنساء المغرب وكثيرات غيرهن استوفينا أسماءهن في تاريخ آداب العرب

وحفل تاريخ الادب بالقيان الظريفات الغزلات ولا تكاد اسماءهن تحصى وهن سر الغزل الحي البديع الذي انفردت به تلك المصور ولم يظفر الادب العربي بمثله من بعدها الى اليوم^(١) وجاء في آدابنا العربية من المؤلفات المعجبة التي أفردت للحب ومعانيه واهله وأخبارهم ونواديرهم وأشعارهم كتب مجودة منها كتاب الزهرة الذي ألفه الامام محمد بن داود الظاهري فقيه أهل العراق^(٢) وقد جعل كتابه في مائة باب وهو القائل : ما انفككت من هوى منذ دخلت الكتاب، ثم الظرف والظرفاء وكتب مؤلفه الكثيرة في هذه المعاني^(٣) ثم مصارع العشاق الذي وضعه أبو بكر البغدادي السراج المتوفي سنة ٥٠٩ وجمعه اثنين وعشرين جزءاً وهو اصل لكل ما وضع بعده من الكتب كاسواق العشاق وديوان الصبابة وتزيين الاسواق ومنازل الاحباب وغيرها، ومع كل ما رأيت فقد انفرد الشعر وحده بالذنب والغزل واوصاف الجمال وليس لنا كتاب واحد في رسائل الحب ولا نعرف احداً من البلغاء كتب فيها. ولعل هذا راجع الى ان تلك الطريقة استقل بها الشعر في الصدر الاول فقلد الباقون واخذوا في مدرجاتهم من بعد

وكان هذا الباب عندهم مما يرون للشعر به اختصاصاً فهو سبيله دون الكتابة والخطابة لمكان الوزن في الشعر، فتجيء الرسالة الغزلية لحناً غنائياً من طبيعتها، ثم لانه قد تقرر عندهم انه يحسن في الشعر من فنون الكذب والمبالغة ما لا يطرده في الترحق ان اكثر الرذائل كالهجاء ووصف الحر والمجون كان ظرفها الشعر وهي فيه سائغة وفي غيره منكرة ولا يأتي منها في المنشور إلا قليلاً

وقد نصوا على ان للشعر مواضع لا ينجع فيها غيره من الخطب والرسائل بل هو يفضلها.

(١) واسماؤهن وحدها غزل ومن هذه الاسماء : حكيم الهوى وقلوب وصدق ومهج وخشف وخنث وبدعة ومشتهى وكنوز ونشوان وترشف وملاعب الخ وكان فيهن ادبيات محسنات ولهن بلاغة هي صورة اخرى من جاهن كفرحة جارية بن الجهم الشاعر المشهور ساها ذات ليلة كم بيننا وبين الصبح فقات (عناق مشتاق) وقال لها مرة نجعل مجلسنا الليلة في القمر فقات ما اولئك بالجمع بين الضرائر

(٢) توفي سنة ٢٩٥ ومن كتابه جزء في دار الكتب المصرية وكان يمشق على الطريقة التي اشار اليها ابن سينا والتي هي حقيقة الحب ولا تنس انه كان فقيه أهل العراق

(٣) هو ابو الطيب محمد بن اسحاق بن يحيى الوشاء من ادباء القرن الثالث وستأتي الاشارة اليه بعد وكتبه في هذه المعاني مسماه في الظرف والظرفاء

قال ابو هلال العسكري في كتاب الصناعتين وهو يعدُّ هذه المواضع: «ومن ذلك ان صاحب الرياسة والابهة لو خطب بذكر عشيق له وبأوصف وجده به وحينئذ إليه وشهرته في حبه وبكاه من اجله لاستهجن منه ذلك وتنقص به فيه، ولو قال في ذلك شعراً لكان حسناً»
وقد توفي العسكري سنة ٣٩٥ للهجرة وعلى كثرة ما حشد في كتابه من فنون النثر وطرائقه لم يأت برسالة واحدة بين حبيبين إلا ما اوردته في باب ما يحتاج الكاتب الى ارتسامه وامتناله قال: وينبغي ان يكون الدعاء على حسب ما توجه الحال بينك وبين من تكتب إليه..
وقال كتب بعضهم الى حبيته له: عصمنا الله واياك مما يكره. قال فكتبت إليه يا غليظ الطبع لو استجيت لك دعوتك لم نلتق ابداً.....

ولا ريب عندنا ان هذه الكتابة مصنوعة للتمثيل بها في هذا الموضع كالذي كانوا يصنعونه من الشعر اذا احتاجوا الى الشاهد والمثل على ما بيناه في باب الرواية من تاريخ آداب العرب ثم هم ينخسون الشعر بالغزل والتشبيب والنسيب لان الشعر ايسر عملاً واخف مؤنة في هذا الباب اذ يعين بقوافيه على الابداع في المعاني فان القافية كثيراً ما تخترع المعنى وتلهمه الشاعر، ثم الشعر يصحبه الوزن واللحن فيعين بنسقه ايضاً كما يعين بقوافيه، ثم تجيء الفاظه مقدودة مفصلة فتكون حيلة ثالثة، ثم هو يكتفي منه بالبيتين والايات اليسيرة فيجيء في كل ذلك على اتفه واحسنه ويقوم به، بخلاف الكتابة فلا يجدي فيها السطران والاسطر القليلة في رسالة تصف الحب، وما ستر هناك يفضح هنا وما اعان في الشعر ينخذل في النثر والشعر لإجمال والكتابة تفصيل

وانت فاعمد الى بيتين من رائع الغزل كقول ابن الطثرية:

بنفسي من لو مرَّ ببردٍ بَنَانِهْ على كَيْدِي كَانَتْ شِفَاءً أَنَامِلُهْ

ومن هَابِنِي فِي كُلِّ شَيْءٍ وَهَبْتُهُ فَلَا هُوَ يُعْطِينِي وَلَا أَنَا سَائِلُهْ

فاجمل هذين البيتين رسالة الى حبيبة فانها يجزئان ويؤديان الرسالة، وينقلان إليها عن نفسك معاني الاحتراق والعشق والصبابة، ويتكلمان عندها كثيراً ويعلقان بذهنها ويدوران في قلبها دورة الدم. ثم اعمد اليهما فاجمل المعنى المنظوم في سطرين وحاول منهما رسالة كتلك فان السطرين لا يترحزان ولا يمشيان إلا كما يتوكا الاعرج على اعرج مثله....

وهذا الى ان الكتابة في معاني الحب لا تحتل الصدور والفصول وصناعة الالفاظ والترادف بالكثير منها على القليل من المعاني، ويسمَّجُ فيها خاصة ماتراه يحسن في غيرها من فنون الكتابة كالتوسع بالنقل والرواية وتشقيق الكلام بما يلامس كل معنى والطفيان في العبارة بذلك وما اليه وكل شيء فهو يصلح مادة للكتابة إلا في هذا الفن من رسائل الحب

فان مادته القلب والروح وفلسفة العاطفة وترادف وحي الجمال بالمعاني الكثيرة على الشعور الواحد لا وحي اللغة بالالفاظ الكثيرة على المعنى الواحد ولا يتخلص الى فنونه وممانيه الا من ثمة. فكان هذا الباب هو من ناحية ليس في طبيعة كتابة المتقدمين، ومن الناحية الاخرى ليس في طبيعة الاجتماع يومئذ لاسباب لا محل لبسطها في هذا الایجاز

ولقد كتب شيخنا وأدينا الكبير الجاحظ رسالة في العشق والنساء وهي في مجموعة رسائله فكان والله كالذي يلبس ملكة الجمال في هذا العصر مرقمة قدرة... واجتلب من هنا وهناك لمعانيه وشق لها المداخل والمخارج على طريقته واتسع بذلك في العبارة فجاءت أبرد رسائله وأسقطها وكان هذا الامام فيها كالذي يتحسس يده مجلدأ ضخمأ من الكتب ثم يذهب يستوحي من جلده اوصاف ملمس جسم الحبيبة... التي « كأنها طاقة نرجس او كأنها ياسمينه او كأنها خرطت من ياقوتة ». وساق ابن قتيبة في كتابه عيون الاخبار رسالة من منية الى صاحبها قابوس — وهما من اعلام العشق في الادب — ثم جواب قابوس عليها ثم رسالة أخرى منه^(١) فكتبت منية إلى حبيها :

من سن سنة فليرض بأن يحكم عليه بها ، ومن سأل مسألة فليرض من العطية بقدر بذله ، لكل عمل ثواب ولكل فعل جزاء ، ومن بدأ بالظلم كان اظلم ، ومن اتصر فقد انصف والنفوس أقرب إلى العقل ، وغير مسمى من أعتب . ، مع المنخفض تبدو الزئبده ، عند تناهي البلاء يكون الفرج ، كل ذي قرح يشتهي دواء قرحه ، كل مطمع منتظر ، كل آت قريب . ، الموت أروح من الهوى ، اليأس أول سبب الراحة ، السحر انفذ من الشعر^(٢) ، دواء كل محب حبيبه ، مع اليوم غد ، كما تدن تدان ، استشف الله لما بك واسأله المدافعة عنك وأجابها قابوس :

من الكرام تكون الرحمة ومن اللثام تكون القسوة ، من كرم أصله لان قلبه ورق وجهه ، ومن عاقب بالذنوب ترك الفضل ومن ترك الفضل أخطأ الحظ ، ومن لم يغفر لم يغفر له . ، أولى الناس بالرحمة من احتاج اليها فحرمها ، لكل كرب فرج ولكل عمل ثواب . ، ملكت فاسججني ، قدرت فاعني ، ويل للشجي من الحلبي الخ الخ فانظر ويحك ما هذا الكلام المتقطع المتبذل المطروق المنتزع كله من الامثال والحكم كأن العشق في الحافظة . . . ولم يُورده ابن قتيبة الا في باب النساء والعشق . . . ثم ما عسى كان يقول هذان الحبيبان لو أن منية هذه قامت على منبر مسجد الكوفة . . .

(١) الجزء الرابع من عيون الاخبار صفحة ١٣٦ طبعة دار الكتب المصرية

(٢) الصواب الشعر انفذ من السحر كما هو ظاهر

وصَعِدَ قابوسُ المنبرَ في مسجدِ البصرة وأراد أن يخاطبَ الناسَ لاقامة صلاة الجمعة ؟
على أن بلغاء الكتاب في كل عصر قد تناولوا في ترسلهم فن (الإخوانيات) وأجرُوا
فيه رسائلَ المودَّة والشوق والصدقة والاستعطاف والعتاب والاعتذار والاستزارة لمجالس
الذات والأنس ، وهذه كلها من أمسِّ المعاني بالحب وأقربها شهاً به وقد أجاد بعضهم
في ذلك إجادة بالغة وأنت تجد رسائلهم مثورة في كتب الأدب (١) ومن أبدعها قول
سعيد بن حميد حبيب فضل الشاعرة : إني صادقت منك جوهراً نفسي فانا غير محمود على
الانقياد لك بغير زمام لأن النفس يقودُ بعضها بعضاً (٢)

غير أنهم يشترطون في هذا الفن من الرسائل الإيجازَ والاختصارَ وأن لا يتجاوزوا
به نكتة المعنى ليحجىء قصداً قريباً ، ولعل ذلك للعللة التي أومأنا إليها من قبل إذ كان هذا على
حدود الحب فإذا تبسَّط فهو الحبُّ بعينه . والكثير في الحب لا يكثُر ولا يَمَلُّ أما
في الصداقة فإلى حدِّ وحسبُ

وانظر ما كتب بعضهم في قطيعة صديق إذ كتب إليه : لم يدع انقباضك عن
الوفاء وانجذابك مع سوء الرأي في ملاحظة الهجر والاستمرار على الفدر محرراً من
القلب عليك ولا خاطراً يومي الى حسن الظن بك . هيات انقضت مدة الانخداع لك
حين أخلفت عِدَّةَ الأمانى فيك وما وجدنا ساتراً من تأنيب النصحاء في الميل اليك
والتوفُّر عليك إلا الإقرارَ بطاعة الهوى والاعترافَ بسوء الاختيار
فهذه الرسالة لو أنها صُرفت الى حبيبة وامتدَّت بها النفس على هذا الاسلوب وبمثل
هذا التصرف لتكون صفحتين أو تبلغ صفحات لرجفت أركانها الوثيقة وخرجت الى

(١) عيون الاخبار لابن قتيبة والظرف والظرفاء والصناعتين والمقد الفريد لابن عبد ربه وصبح
الاعشى وبيضة الدهر والمنظوم والمنثور لابن طيفور وغيرها ، وقد يكتب في هذه المعاني بعض القيان
كالرقة التي املتها جميلة المغنية في استزارة عبد الله بن جعفر وتقلها صاحب الاغانى في ترجمتها في الجزء
السابع . وجميلة هذه من أبلغ النساء وأظرفهن وكانت سيدة اهل زمنها في الفناء وكانت تتواضع للاحوص
وتعجب به وتفتي بشعره

(٢) روى صاحب الاغانى عن ابن ابي المدور قال : كنت عند سعيد بن حميد وكان قد ابتدأ ما بينه
وبين فضل الشاعرة يتشعب وقد بلغه ميلاً الى بنان وهو بين المصدق والمكذب بذلك فأقبل على صديق
لي فقال : أصبحت والله من امر فضل في غرور اخادع نفسي بتكذيب الميان وأمنيتها ما قد حيل دونه .
والله ان ارسالي اليها بعد ما قد لاح من تغيرها لذل ، وان عدولي عنها وفي امرها شبهة اعجز ، وان
تصبري عنها لمن دواعي التلف . ثم أنشد ابياتاً من الشعر

فهذه كانت طريقتهم في الحب يتحدثون به ولا يكتبون فيه ، ويتراسلون به اما في الاسفة واما في
رقاع تقوم مقامها في التحدث والتأدية والابلاغ وفي كتب الادب اشياء من هذه وتلك . واقدم كانت
كلمات سعيد في تلك الحال تصلح مادة رسالة بليغة في صاحبته الشاعرة الجميلة لولا ما بيننا . وكانت رسائل
فضل شعراً تنظمه ، وفي رأينا انه لو كان ابتدأ فن الرسائل الغرامية كاتب لا يبدأ سعيد هذا

الاستكراه والتكلف وجاءت عيوبها من محاسنها وهلك من طول أولها الى آخرها
ولذلك نحونا في « أوراق الورد » أسلوباً خاصاً تدور به المعاني الحية في ألفاظها
بالين مسّ وألطفه على وضع مستحكم كما يمسّ الدم الحي عروقه التي يدور فيها

ولم نقف على اسم كتاب أفرد لرسائل الحب ولو انهم كتبوا فيها لجمعت كغيرها
وأفردت بالتدوين ، بئيد أن للقيان الأديبات المتطرفات ضرباً من رسائل الحب يكتبها
بالذهب والمسك والزعفران في بديع الحرير الصيني وضروب الديباج ويحملن ظروفا طرائف
المتاديل ويتخذن لها الزناير الحيرية تربطها ويطيّبونها بالمسك والذرائر^(١) ولا يكتبن
فيها إلا « تنف الألفاظ المهلكة ... ومسلح المكاتب ، وطرائف المعاتبة ، وجميل المطالبة
وشكيل المداعبة » وقد جمع ابو الطيب الوشاء من أدباء القرن الثالث كتاباً من هذه الرسائل
سماه (فرح المهج) والذي يؤخذ من كلامه أن أكثر ما يكتب في ذلك هو الشعر والمثل
وايات العتاب والسلام ونحوها مما هو محفوظ مأثور فليست هذه من رسائل الحب وانما
هي من وسائله . . .

وأبعد في الاستحالة من كل ما مرّ أن يكون في الأدب العربي ديوان من الرسائل الغرامية
لكاتب واحد ، فلقد كان مثل ذلك في الشعر كالسدره والفلتة حتى قال الجاحظ : لولا
أن العباس ابن الاحنف أحذق الناس وأشعرهم وأوسعهم كلاماً وخاطراً ما قدر أن
يكون شعره في مذهب واحد لا يجاوزه لأنه لا يهجو ولا يمدح ولا يتكسب ولا يتصرف ،
وما نعلم شاعراً أزم قنّاً واحداً لزومه فأحسن فيه وأكثر
ولأديبات الجواري رقاع في مكاتب عشاقهن بئيد أنها لا تذهب إلا مذهباً واحداً
في الكلام فهي في القلم كما هي في اللسان وليس الكتاب إلا رسولا لا رسالة . وقد نقل
صاحب الاغانى في ترجمة عريب الحسناء الفاتنة المغنية الشاعرة الكاتبة البليغة المتعشقة التي
تكاد تشبه الادبية الفرنسية الشهيرة التسمية (جورج ساند) في عشقها واستكلاها
نقل أنها عشقت صديقاً لمولاها يقال له حاتم بن عدي قال فدّ عينه اليها « فكانها فأجابته »
وقال أيضاً انها لما صارت في دار المأمون احتالت حتى أوصلت محمد بن حامد وكانت قد
عشقتة « وكاتبته » ونقل عن بعضهم قال وسمعت من يحكي أن بلاغتها في كتبها ذكرت لبعض

(١) جمع ذريرة ضرب من الطيب مما كانوا يصنعونه

الكتاب قال فما عنهما من ذلك وهي بنت جعفر ابن يحيى (١) ثم روى صاحب الاغانى من مَجُونِها وإفحاشها ، فلو ان لها رسائل حب لاستطرف منها هو أو غيره ولكنها كما قدمنا رقاغ في مثل الكلام الذي يتراجمه كل صاحبين اذا تحدثا أو تشاكيا أو تواعدا وليست من الرسائل المصنوعة الجوّدة القائمة في فنا على شاعريّة الجمال وتفلسف الحب وغزّل الروح وخصائص المعاني . وتبذل بعض ادباء المتأخرين فكتبوا في الرسائل الغرامية يخاطبون فيها بكاف الخطاب المفتوحة . . . كقول الاديب الشهير ابن سناء الملك من رسالة : وانا والله في امرك مغلوب ، والسبب اني أنا المحب وأنت المحبوب، ولا أتجد عليك فاغرك وأخون حبك ، ولا اتصنع عليك فاغشك واغم قلبك . . . اعلم ما شئت فانا الصابر ، وافعل كيف شئت فانا الشاكر وقل فلي سمع يعشق قولك ، والتفت ترآمالي ترفرف حولك ، وافعل فأنت المعذور ، واستطل فما انا المضرور بل المسرور ، وارجع الى الود الذي بيننا فكل ذنب لك مغفور . وهذا كما ترى كلام غث سمج وحب قد يكمنه في الطريق الكناسون . . .

ولبديع الزمان رسالة مشهورة « الى بعض من غزّل عن ولاية حسنة » اثبتها في ديوان رسائله . ولابن الأثير في كتابه « المثل السائر » رقعة قال أنها من عاشق لمعشوق وعدّها فيما عدّ من معانيه المبتدعة وكل ذلك عندنا لا قيمة له

ومن المضحكات رسالة كتبها علاء الدين المغربي سماها النيرين ، قال وهي من المحب الكئيب الى حبيب الحبيب (٢) . . . وقد اوردها ابن أبي حجلة من ادباء القرن الثامن في كتابه الذي سماه (حاطب ليل)

فانت ترى ان الأدب العربي قد انطوى على محجوبة من هذا الفن بقيت في الغيب الى عهدنا هذا ونرجو من فضل الله ان تكون كتبنا الثلاثة قد أظهرتها واستعلنت بها وان تقول العربية اذا تواصّفوا كتب هذا الباب في بيان اللغات الاخرى : « عاؤم اقرؤا كنايةه » والحمد لله بما يبلغ رضاء

مصطفى صادق الرافعي

(١) لا ريب عندنا ان هذه العبارة مما يتكذبون به لغرض من اغراضهم في الرواية ولذلك قال في سندها وسمعت من يحيى وروون ان عريب زارت صاحبها محمد بن حامد مرة فجلل يمايتها ويقول فملت كذا وفلمت كذا فقالت يا عاجز . خذ فيها نحن فيه . . . فاذا كان غداً اكتب الي بمتابك في طومار (فرخ ورق) حتى اكتب اليك في ثلاثة ودع الفضول فقد قال الشاعر :

دعي عد الذنوب اذا التقينا تعالي لا اعد ولا تعدي

وهذا ان لم يكن حدث فهو تهويل من صناعة الاخبار على طريقتهم في سوق الحكاية وتغزيل معانيها وتديير نسقها . وان كان قد حدث فهو تهويل من عريب وتبسط وكانت طويلة اللسان مهذاره كأنها تقول لصاحبها ان كان قدر لسانك طوماراً فاساني ثلاثة

(٢) عشق هو حبيباً وعشق الحبيب حبيباً في مثل سنه وجماله فاتصل النير بالنير . فهذا سبب تسمية الرسالة بالنيرين